

مواقف ابن جبير السياسية من خلال رحلته

بقلم : أحمد الشتيوي

إنَّ الشَّهرة التي نالتها رحلة ابن جبير (1) عظيمة لأنَّها نموذج فن الرِّحلة عند العرب (2) ولأنَّها وثيقة لا غنى عنها للمؤرخ (3) وقد استفاد منها كثير من الباحثين ، واستغلَّوها في مواضيع شتَّى (4) إلَّا أنَّهم أغفلوا موضوعًا طريفًا مهمَّ ابن جبير نفسه وهو موقفه من سياسة حكام البلدان التي مرَّ بها . وهو موضوع رأينا العناية به في هذا البحث حتَّى نكشف النَّقاب عن جانب آخر من جوانب أهمِّية هذه الرِّحلة . وقد قسَّمتنا عملنا حسب محاور الاهتمام التَّالية : حكام المشرق وحكام المغرب وحكام النَّصارى .

(1) هو أبو الحسين محمد بن جبير الكناني الاندلسي الشاطبي البليسي (1145/540 - 1217/614) كان شاعرا مجيذا ، وعمل كاتباً لدى والي غرناطة الموحدي عثمان بن عبد المؤمن بن علي . وقد حج سنة 1183/579 ، وسنة 1189/585 وسنة 1217/614 . وفي الأولى وضع « تذكرة بالأخبار على اتفاقات الأسفار » وهو كتاب وصف رحلته - انظر فصل شارل بلا . Ibn Djubayr El2.

Pellat)

(2) إنَّه لا مرَّاء اليوم في أن رحلة ابن جبير تمثِّل فنَّ الرِّحلة عند العرب . هناك إجماع على هذا الرأي .
(3) استفاد منها المؤرخون في وصف الممالك الصليبية في الشام ، وصقلية ، والحركة التجارية ، وحركة الملاحة ، ووصف الحرمين .
(4) وقع استغلال رحلة ابن جبير في عدَّة مجالات مثل الحضارة واللغة والأدب والجغرافيا .

حكّام المشرق : تركّز حديث ابن جبير على الخليفة وصلاح الدين الأيوبي والديوانيين وأمير مكة وأمير الركب العراقي والخواتين .

الخليفة : لقد اقتصد ابن جبير في كلامه عنه اقتصادا يثير الاستغراب فلم يقدّم عنه إلاّ معلومات لا تتجاوز الصفحة والنصف (5) ولكن ما قاله عنه كاف للتعرف على مكانته في الهرم السياسي في ذلك الوقت .

إنّ أوّل ما جلب اهتمام ابن جبير في بغداد العاصمة السياسيّة للأمة الإسلامية موقع قصور العباسيين . فهي منفردة في الناحية الشرقية وفيها « جميع العباسيين (...) معتقلون اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم » ومنها « للخليفة (...) جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر (6) المشرفة (...) والبساتين الأنيقة » .

وكان الخليفة إبان مرور رحّالتنا ببغداد هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (7) شاهده ابن جبير راكبا في زورقه في دجلة ووصفه بقوله « أشقر اللّحية ، صغيرها كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرّواء ، سنّه نحو الخمس والعشرين سنة ، لابسا ثوبا شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهّبة مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس ممّا هو كالفنك ، وأشرف متعمّدا بذلك زيّ الأتراك تعمية لشأنه » .

(5) انظر ص ص 202 - 204 من طبعة صادر ، 1964 ، وهي التي نعول عليها في هذه المقالة .

(6) مفردة منظرة وهي قاعة واسعة في الطبقة السفلية أو العلوية يقم فيها الخليفة لاستقبال الضيوف أو الفرجة - انظر Dozy. Supplément 2/687

(7) هو الخليفة الرابع والثلاثون ، حكم بين 1180/575 - 1225/622 - انظر عنه فصل Al - Nāṣir : E I : 111/920 (F. Taeschner)

وتحدّث عن نظام حكمته فذكر أنّها تتكوّن من :

- نائب وزير (8) مكلف بحضور « الديوان (9) المحتوي على أموال الخلافة ، وبين يديه الكتب فينفذ الأمور » .

- قيّم يشرف على القصور .

- أمين يُلقب بأستاذ الدار (10) مكلف برعاية « جميع من تضمّه الحرمة الخلافة » .

- قائد عسكرية تحت طاعته « أمراء الأجناد من الأتراك والدّيلم وسواهم » .

ويبدو أنّ ابن جبير قد وقف من الخلافة العباسية موقفين متناقضين : موقف ديني أملت عليه عقيدته . وفيه لم يتردّد في إعلان تمجيده للعبّاسيين لأنهم ينحدرون من بني هاشم (11) . فقد قال عن بغداد « لم تزل حضرة الخلافة العبّاسية ومثابة الدّعوة الامامية القرشية الهاشمية » (12) وعن النّاحية الشرقية منها « وأمّا الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفا واحتفالا »

(8) عن وظيفة الوزارة وتطوّرها انظر ابن خلدون : المقدمة ، الباب 3 الفصل 34 في مراتب الملك والسلطان وألقابها (الوزارة ص ص 419 - 425) طبعة الكتاب اللبناني ، 1967 .

(9) يطلق هذا المصطلح على عدّة وظائف منها : ديوان الرسائل والكتابة ، وديوان الأعمال والجبّايات ، والوظيفة الأخيرة هي المقصودة هنا . انظر عنها المرجع اعلاه ص ص 430 وما بعدها .

(10) هذا تحريف شائع للقب « إسنّدار » وهو لقب على الذي يتولّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمثّل أوامره فيه وهو مركب من لفظتين فارسيّتين إسنّذ ومعناها الأخذ ودار ومعناها الممسك . فادغمت الذاًل في الدال . وقد يقال سبتدار . والمتشدّقون من الكتاب يقولون : أسندار وربما قالوا : أستاذ الدار ، ظنا منهم أن المراد حقيقة الدار في اللفظ العربي ، وأستاذ بمعنى السيد ولذلك يقولون « استادار العالية » أو « أستاذ الدار العالية » وهو خطأ صريح - انظر عنه القلقشندي : صبح الأعشى القاهرة د . ت . 457/5 .

(11) هم سلالة هاشم بن عبد مناف ، الجذ الأعلى للرسول محمد - صلعم - انظر عنه فصل : Hashim EI2 : 111/267 (W. Montgomery Watt)

(12) ص : 19 .

(13) . وموقف سياسي مستمد من وضعية هذه الخلافة . فهي ضعيفة ، وأصحابها « معتقلون » وليس لهم من السلطة إلا اللقب مما يدفع الى التهاون بشأنهم وإهمال ذكرهم وفي رأينا أنّ في إشارة ابن جبير الى الدعاء في الخطبة لأستاذ الدار ، وتعجبه من قائد العسكرية في أبيته وأملاكه ، وتركه الدعاء للخليفة ما يدلّ على أنّ هذا الأندلسي لا يعترف بالخلافة العباسية سياسيا .

صلاح الدين الأيوبي (14) : كادت القطيعة تقع بين المغرب والمشرق أثناء حكم الفاطميين (15) الذين فرضوا على الحجيج المغاربة دفع مكس العبور (16) بمصر ، حتّى أباح الفقهاء ترك هذه الفريضة والى ذلك أشار ابن جبير في قوله « فمن يعتقد من فقهاء الأندلس إسقاط الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح (...) فراكب هذا السبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر » (17) .

وعندما قضى عليهم صلاح الدين ، وطهر منهم البلاد ، واستقام له الحكم في مصر أعاد الاعتبار للحجيج . ولا شكّ في أنّ الخبر بلغ الى المغرب العربي وانتشر في أصقاعه وسمعه الخاصّ والعامّ واطمأنت له النفوس . ومّا يدلّ على ذلك ما ورد في رحلة ابن جبير . فإنّ هذا الرحالة ما كاد يدخل الإسكندرية حتّى انبرى يثني على صلاح الدين ويعدّد مناقبه ويتتبّع أخباره .

(13) ص : 202 .

(14) هو يوسف بن أيوب بن شادي (1137/532 - 1193/589) مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام ، ومحارب الصليبيين ، انظر عنه الزركلي : الاعلام 291/9 - 2 .

(15) تنسب دولتهم الى فاطمة بنت الرسول وزوج علي بن ابي طالب . وينسبها المؤرخون العرب قديما الى مؤسسها عبيد الله المهدي سنة 909/296 ، في افريقية (تونس) ثم انتقلت الى مصر سنة 972/362 ، لمحاربة العباسيين حتى وقع القضاء عليها سنة 1171/567 . انظر عنها فصل : Fatimides. EI 2 : 870 - 884 (G Marçais) وعن نشأتها : F. Dachraoui : le califat fatimide : au Maghreb; S.T.D. ; 1981

(16) هذا المكس فرضه الفاطميون على المغاربة عقابا على ولائهم للعباسيين وهو « سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية ... على كل رأس » وهو مقدار عظيم حسب ابن جبير ، الرحلة ص 20 . ولم يكف الفاطميين هذا العقاب فعضدوه بإرسال أعراب الصعيد وتسريحهم لمهاجمة إفريقية . وكان من الأعراب ما تحدّث عنه كتب التاريخ من تخريب العواصم .

(17) ص 55 ، وأيضا 31 .

ولم يتوقف على الإشارة بفضلته إلا حين خرج من الشام . فجاءت رحلته وثيقة من أحسن الوثائق عنه . ويمكن توزيع المعلومات الكثيرة عنه الى ثلاثة محاور هي التالية :

- إبطال المكوس : ذكر ابن جبير أن الفاطميين قد نوعوا المكوس فمنها أداء العبور وهو مكس وظفوه على الحجيج المغاربة . فما من حاج دخل مصر إلا وألزم بدفع هذا الأداء فإذا وصل إلى عيذاب (18) ولم يفعل « يتناول بأليم العذاب (...) » وربما اخترع له من أنواع التعذيب التعليق من الأنثيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة « وحتى إن أفلت ووصل الى جُدَّة (19) بدون علامة الأداء فإنه يُعَذَّب أيضا (20) . وقد كان هذا الأداء يُدفع « باسم ميرة (21) مكة والمدينة » . وكان أول عمل قام به صلاح الدين إعفاء الحجاج من هذا الأداء وعرضه بما « يقوم مقامه من أطعمة وسواها وعين مجبى (...) » وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز » (22) .

ومنها ما وُظف على الرعية مثل الضرائب التي تُستخلص « على كل ما يباع ويُشترى مما دق وجل حتى كان يُؤدَّى على شرب ماء النيل » (23) فألغاها صلاح الدين جميعا ووسَّع على الناس .

(18) أشهر مدينة تجارية على البحر الأحمر في ذلك الوقت فمرساها « من أحفل مراسي الدنيا » حسب تعبير ابن جبير ، انظر الرحلة ص ص 47 - 50 . وقد وقع تخريب هذه المدينة ولم يبق لها أثر انظر عن ذلك فصل : (H.A.R. Gibb) : 1/805 - 6 : 2 : Aydāb .

(19) كان الحجاج المغاربة والمصريون يركبون البر الى عيذاب ثم يركبون البحر الأحمر الى ميناء أببحر الواقع على جزيرة العرب « وهو على بعض يوم من جُدَّة ، وهو من اعجب المراسي وضعا » (الرحلة ص 51) ثم ينتقلون الى جُدَّة حيث تتم مراقبة من تأخر عن دفع مكس العبور . (20) ص 31 .

(21) هي الطعام يجلب للنفس أو للبيع ، والمقصود هنا ما التزم بدفعه صلاح الدين الى أمير مكة . (22) ص ص 30 - 31 ، وقد ذكر ابن جبير أن العوض هو ألفا دينار وألفا إردب من القمح حاشا إقطاعات بصعيد مصر وباليمن . انظر الرحلة ص 55 . وذكر أبو شامة بأن أمير مكة كان يأخذ من حاج الغرب رسما على عدد الرؤوس فعوضه له صلاح الدين بشمانية آلاف إردب قمح ، وتم ذلك سنة 1176/572 - انظر كتاب الروضتين في اخبار الدولتين طبعة دار الجليل - بيروت د . ت ،

ولم يُبقِ هذا السلطان من مواردٍ لبيت المال إلا الجزية على اليهود والنصارى وزكاة العين . وكان لا يأخذ منها « سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان » الباقية يضيفها الى الأوقاف (24) .

توفير المرافق : اعتنى صلاح الدين بتعمير بلاده وتوفير المنشآت الاجتماعية المختلفة فيها . وأول ما اهتم به هو إعادة بناء القاهرة بعد التخريب الذي لحقها بسبب الحريق الذي أحدثه فيها الفاطميون أثناء الحرب بينهم وبين صلاح الدين (25) وقد شاهد ابن جبير أعمال الترميم والبناء فيها على قدم وساق ، ولاحظ أنّ « أكثرها (...) مستجدّ » (26) . كما اعتنى بتحسينها فبنى القلعة الشهيرة لتكون مسكنه ومقرّ حكومته ومد سوراً بين مصر (27) والقاهرة (28) وقد ترك ابن جبير وصفا موجزاً ودقيقاً لأعمال البناء فقال « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصن المنعة يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه (29) ويمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسّخرون في هذا البنيان والمتولّون لجميع امتهاناته ومؤنّته العظيمة كنشر الرّخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدث بسور الحصن المذكور ، وهو خندق يُنقر بالمعاول نقرا في الصّخر عجبا من العجائب

(24) ص 16 .

(25) وقع ذلك سنة 1169/564 ، ودام الحريق شهرين - انظر الرحلة ص 29 وابن خلدون : العبر 619/5 .

(26) ص 29 .

(27) تسمى أيضا الفسطاط ، وهي من تأسيس عمرو بن العاص ، انظر عنها فصل Mist : EI. (A. J. Wensinck) 111/590 - 1 .

(28) هو اسم المدينة التي بناها جوهر الصقليّ للفاطمين قريبا من مصر (الفسطاط) وعندما بنى صلاح الدين سورا بين المدينتين غلب اسم القاهرة ، انظر الفصلين : Al-Kāhira : EI 2 : IV/442-64 : (J.M. Rogers) et le Caire : E.I. : 1/835-46 (C.H. Becker) J. Jomier .

(29) تسمى هذه القلعة أيضا قلعة الجبل لأن بناءها على جبل المقطم بين القاهرة ومصر والتيل والقرافة ، وهي قلعة عجيبة واسعة حصينة اتخذها الملوك بعد صلاح الدين مقرّ حكمهم وسكناهم . انظر عنها المقرئزي : الخطط 201/2 - 207 .

الباقية الآثار، العلوج الأساري من الروم وعددهم لا يُحصى كثرة (30) « (31) .

كما بنى هذا السلطان المدارس والمساجد والجوامع ووفّر لها جميعا الأموال اللازمة بتعيين الأوقاف ووظّف عليها قِيَمين . فما منها مؤسّسة « إلّا وفضل السلطان يعمّ جميع من يأوي إليها ويلزم السكّنى فيها » (32) . كما عمّر - في القاهرة - مارستانا فيه قسم للنساء ، وقسم للرجال (33) . واعتنى خاصة بأبناء الفقراء والأيتام وتعليمهم فأمر « بعمارة محاضر (34) ألزمها معلمين » وأجرى عليهم « الجراية الكافية لهم » (35) .

وكانت عناية صلاح الدّين بتوفير المرافق أوسع من أن تقتصر على رعيته في مصر والشّام . فلم يهمل تدبير شؤون الغرباء الواردين على بلده من سائر الأقطار الإسلامية ، وخاصة أهل الطلب والتعبّد الذين « يقدون من الأقطار النائية » . فإن دخل الواحد منهم الإسكندرية وجد « مسكنا يأوي إليه ومُدْرَسا يعلّمه الفنّ الذي يريد تعلّمه ، واجراء يقوم به في جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا الى ذلك . ونصب لهم مارستانا » (36) . أمّا إذا وصل الغريب الى القاهرة فإنّه يجد أيضا المأوى والمعاش والرّعاية الكاملة (37) .

(30) مصدر هؤلاء الأسارى هو الحرب بين صلاح الدين والصّليبيين . وكثرتهم تدلّ على انتصارات صلاح الدّين . وقد كانت عادة تشغيل الأسارى في الأعمال الشاقة متبعة عند المسلمين والنصارى .

(31) ص 25 .

(32) ص 27 .

(33) ص 15 .

(34) مفردة محضرة ، وهو مصطلح خاصّ بابن جبير . ويبدو أنّه يقصد بها المدرسة يُلزم الصّبيان بحضورها لنوع خاص من التعليم . انظر الرحلة ص ، 27 ، 245 ، 250 ، 306 .

(35) ص 27 .

(36) ص 15 .

(37) ص 24 .

واكثر الغرباء حظوة عند صلاح الدين هم المغاربة . فإنه - وإن لم يقصر في الإحسان لسائر المسلمين - مكن المغاربة من بعض الميزات دون سواهم . فاهتمّ بتسهيل حجّهم ، وأمنهم ، ووفر لأبناء السبيل منهم المعاش فعين « خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً » (38) وخصّص لطلبه منهم المسجد الطولوني (39) « يسكنونه ويحلّقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر (...) وجعل أحكامهم إليهم » (40) .

- الجهاد : هذه أهمّ منقبة اتّصف بها صلاح الدين وردّد ابن جبير ذكرها الحسن . فقد وقف هذا السلطان حياته على حرب الصليبيين ، لطردهم من بلاد الشام وخاصّة بيت المقدس (41) . وتوخّى لتحقيق هذه الغاية ثلاثة مذاهب (42) هي الدفاع والهجوم والمطاردة .

أمّا المذهب الأوّل فجسّمه في تحصين القاهرة ضدّ كل هجوم مُباغت ببناء سور . وفي تسهيل تنقل الجنود منها إلى الإسكندرية أثناء فيض النيل وامتناع السبيل ببناء قناطر عظيمة . وقد وصف ابن جبير هذا البناء بإعجاب

(38) وقد ذكر ابن جبير أنّ عدد الخبزات يمكن أن يصل الألفي خبزة (2000) يومياً وهذا يعني أن عدد المغاربة المتحصّلين على هذا المعاش فقط قد يصل إلى الألف . كما ذكر أنّ بعض الدسّاسين نصّح صلاح الدين بإبطال هذا الإحسان عن المغاربة لأنهم ليسوا في حاجة إليه ، فرفض السلطان ذلك . انظر الرحلة ص ص 16 - 17 .

(39) بناه أحمد بن طولون (ت 884/270) مؤسس الدولة الطولونية بمصر ، وكان المسجد كبيراً وضخماً انظر عنها : EI₂ : Ahmad B. Tulun (C.H. Becker)

(40) ص ص 26 - 27 .

(41) وتسمّى أيضاً القدس ، واكثر استعمالاً ، فتحها المسلمون سنة 638/17 ، وهي ثالثة المدن المقدسة بعد الحرمين . احتلّها الصليبيون في 7 شعبان سنة 15/492 جويلية 1099 وبعد حروب ومفاوضات استردها صلاح الدين في شعبان سنة 582/نوفمبر 1187 . انظر عنها فصل : Al-Kuds : EI₂.V/311 - 345 (O. Grabar)

(42) استعرنا هذا المصطلح الحربي من ابن خلدون . انظر المقدمة ، الباب 3 الفصل ، 37 في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها .

كبير فقال « ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهي نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسي القناطر . والقنطرة متصلة بالصّحراء التي يُفصى منها إلى الإسكندرية . له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به (43) وامتناع سلوك العساكر بسببه . فأعدّ ذلك مسلّكاً في كل وقت إن احتيج إلى ذلك » (44) .

وأما المذهب الثاني فتمثّل في محاصرة المدن الصليبية محاصرة دائمة . وقد حدّثنا ابن جبير عن الجهد الذي كان يبذله هذا السلطان في استرداد حصن الكرك الاستراتيجي (45) . ورغم أنّه لم يستطع تحقيق انتصار على الصليبيين في هذا الحصن لتألبهم عليه من كلّ أوب فإنّه لم يضيّع الفرصة فانتهاز غرّتهم

(43) كان المصريون يراقبون فيض النيل لخطره على الفلاحة واثّر ذلك على الجباية وكان لهم مقياس تضبط به زيادته ، وهو يوجد بجزيرة الروضة في النيل ، وصفه ابن جبير بدقة وحدّد مدة الفيض بقوله « واستشعار ابتدائه في شهر يونية (جوان) ومعظم انتهائه أغشت (أوت) وآخره أول شهر أكتوبر » انظر الرحلة ص ص 29 - 30 .

(44) ص 27 .

(45) هذا الحصن أخطر حصون الصليبيين على المسلمين لأنه كان يهدد ذهابهم الى مكة والمدينة وهو السبب في تعطل المسلك البرّي بين مصر والبقاع المقدسة . وقد وصفه ابن جبير بقوله « من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البرّ ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا » انظر الرحلة ص 260 . ووصفه ابن بطوطة عياناً بقوله « هو من أعجب الحصون وأمنعها ، وأشهرها (...) الوادي يطيف به من جميع جهاته ، وله باب واحد ، قد نُحت المدخل إليه في الحجر الصلّد ، ومدخل دهليزه كذلك ، وبهذا الحصن يتحصن الملوك » انظر رحلته ، تحقيق الكتاني ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1975 ، ج 1/ ص 129 . ونلاحظ أن هذا الحصن كان مصدر هجومات متكررة على القوافل . ولم يستطع صلاح الدين استرداده ولم يتمكن من ذلك الا أخوه العادل سنة 1188/584 . انظر عنه : Hisn Al - Karak EI2 : IV/633 - 4 (D. Sourdel)

« ودَّهم مدينة نابلس (46) وهجمها بعسكره فاستولى عليها . وسبى كلَّ من فيها وأخذ إليها حصونا وضياعاً » (47) .

وأما المذهب الثالث فركّزه على مراقبة حركة الصليبيين وتنقلهم لأنّه أدرك أنّهم يرومون التّوسّع وتثبيت قدمهم في بلاد المسلمين ، ويسعون الى تطويق التجارة التي كانت أهمّ مورد من موارد اقتصاد العرب . وقد حدّثنا ابن جبير عن إحدى محاولاتهم للتّسرّب من الحدود التي فرضها عليهم صلاح الدين قصد الوصول إلى الحرمين . ذلك أنّهم كوّنوا مجموعة من الفدائيين في حصن الكرك ودفعوهم نحو الحرمين لإخراج الرّسول - صلعم - من قبره وترويع المسلمين حجيّجا وتجارا وأهالي . وقد استطاع هؤلاء التّوغّل في البحر الأحمر « وأحرقوا فيه نحو ستّة عشر مركبا ، وانتهوا الى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتي بالحجاج من جُدّة ، وأخذوا أيضا في البرّ قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يُحيّوا أحداً . وأخذوا مركبين كانا مُقبِلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة (. . .) واحداثوا حوادث شنيعة » (48) وكان صلاح الدّين وقتئذ بالشّام . فما كاد يبلغه الخبر ويسمع به حتّى أمر حاجبه

(46) مدينة صليبية سعى صلاح الدين الى استردادها من الصليبيين مرات لكنه لم يتمكن من ذلك بصفة

نهائية - استرجعها المسلمون سنة 1202/598 ،

انظر عنها فصل : Nābulus : EI : 111/860 - 1 (F. Buhl)

(47) ص 272 .

(48) صدق ابن جبير ما اشاعه المهاجمون من أنّهم كانوا يقصدون المدينة المنورة لإخراج الرّسول من ضريحه - انظر الرحلة ص 34 . والحقيقة ان الهجوم كان بدافع اقتصادي . فقد أدرك صاحب حصن الكرك « روني دي شاتيلون Renaud de Chatillon » أهمية التجارة في قوة صلاح الدين فجهاز هذه الحملة سنة 1182/578 قصد التعرف على مدى احتياط المسلمين . انظر عن ذلك فصل : Karak .

المعروف بلؤلؤ مع انجاد من المغاربة البحرين (49) فلهحقوا العدو ، وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم » (50) .

هذه المناقب الثلاثة التي أطال ابن جبير في الحديث عنها ، وبعض المناقب الأخرى التي اكتفى فيها بالإشارة مثل الحِلْم والكرم والعدل (51) هي السبب في تعلق هذا الرحالة الأندلسي بصلاح الدين الى درجة العشق . فلم يتردد في اعتباره « محيي دولة (52) » (53) وصاحب « المفاخر » (54) والمآثر (55) ولم يملّ من تكرار عبارة « السلطان العادل » (56) . وقد بلغ به الحب الى تنزيهه عن كلّ خطأ مهما كان حقيرا . وحتى عندما لحقه أذى الديوانيين أثناء التمكيس لم يحمله أية مسؤولية بل دافع عنه وبرّر موقفه بقوله « وهذا أمر يقع القطع على أنّ صلاح الدين لا يعرفه . ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له » (57) . بل لقد ذهب الى تقديسه ، فلم ير ضيئاً ولم يحسّ بحرج في التحذير من اتهامه بالزلل فيقرّر بأنّه لا يجوز أن « يسعى فيها يُسيء الذكر بمن قد حسن الله ذكره ، ويقبّح المقالة في جانب من أجل الله المقالة عنه » (58) .

(49) هذه الإشارة تؤكد أن المغاربة هبوا لنجدة صلاح الدين في الجهاد ، رغم ما كانوا عليه من جهاد في الأندلس ، وهذا ما يفسر حبّ صلاح الدين لهم .

(50) وذكر ابن جبير أنّه شاهد أفراد العدو في الإسكندرية « راكبين على الجمال ووجوههم الى أذناها وحوهم الطبول والأبواق » وذكر أنهم « قتلوا وأسروا وفرق (منهم) على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم الى مكة والمدينة » انظر ص ص 34 - 35 .

(51) ص ص 270 - 271 .

(52) يقصد أنه أحى الدولة العباسية .

(53) ص 25 .

(54) ص 26 ، 27 .

(55) ص 27 .

(56) ص 14 ، 16 ، 23 ، 31 ، 38 ، 39 ، 45 ، 55 ، 56 ، 73 ، 80 ، 124 ، 149 ،

219 ، 222 ، 257 ، 270 ، 272 .

(57) ص 38 وأيضاً ص 14 .

(58) ص ص 38 - 39 .

ولم يكن حبّ ابن جبير لصلاح الدّين مجرد تقوّل أو ادّعاء أو مبالغة أو إسراف ، ولم يكن لهجه باسمه (59) واسترساله في تعديد مناقبه وحرصه على تتبّع أخباره ، ورفعته إلى درجة الكمال ، وتفضيله على جميع حكام المشرق العربي ، حتّى على الخليفة ، لهوّى في النفس أو بغية صلة أو لتحصيل مكانة . فهو لم يلاق السّلطان ولم يره ولا وقعت بينها مراسلة أو وُصلة . وإنّما أعجب هذا الأندلسي بسّلطان فذّاً حقّاً ، انفرد بصفات في الحكم نادرة وبحبّ للعدل عجيب حتّى « أنّ الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعينهم ، ولا يستشعر لسواه هيئة تشيهم » (60) وكفل الغرباء بتوفير المعاش وتأنيسهم وتسكين نفوسهم . وأعزّ المسلمين بإعلان الجهاد وإحياء سنّته وتسهيل الحجّ وتأمين السّبل وضمن التّجار حتّى كادت تضيق بقوافلها المسالك (61) فكيف لا تحقّق « الألسنية بالتأمين عليه من كلّ مكان » متى ذُكر؟ (62) .

الدّيونانيون : كانت عملية تمكيس المسافرين في الإسكندرية وقوص وغيرها من المدن المصرية قد جلبت اهتمام ابن جبير . فأورد عنها معلومات تفيد في معرفة طريقة التمكيس وموقف ابن جبير منها (63) .

(59) ذكره في أكثر من 20 صفحة .

(60) شاهد ابن جبير ذلك في الإسكندرية والقاهرة . انظر الرحلة ص 17 ، 31 .

(61) لقد عرفت التجارة في عهد صلاح الدين ازدهارا عظيما كان ابن جبير أحد شهود العيان عليه انظر الرحلة ص ص : 40 ، 41 ، 42 ، 43 ، 44 .

(62) ص ص 73 ، 80 ، 124 .

(63) تحدث عن التّمكيس في الإسكندرية ص ص 13 - 14 وبإخميم وقوص ومنية ابن خصيب من الصعيد المصري ص ص 38 - 39 .

كانت عملية التّمكيس تتمّ بصفة دقيقة خاصّة في الإسكندرية أعظم المراسي المصرية (64) فما أنّ يرسو مركب حتّى يخضع المسافرون فيه الى مراقبة صارمة تتمّ حسب المراحل التّالية :

- طلوع الأمناء لتقييد السلع المجلوبة وأمتعة المسافرين وتدوين أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلادهم .

- استجواب أحد المسافرين الثّقات المطلعين على أحوال المركب والمسافرين فيه ، فيسأله رئيس الدّيوان (65) ثم القاضي ثم أهل الدّيوان ثم جماعة من حاشية الرئيس . والغاية من هذا الاستجواب مقارنة قول الشاهد بما يقول المسافرون .

- إنزال السلع والأمتعة إلى الدّيوان .

- استحضار التجار والمسافرين لتفتيشهم واحداً واحداً .

- استحلافهم .

- استخلاص المكس .

- إطلاقهم .

ولا تختلف طريقة المراقبة للتمكيس في سائر الدّواوين كثيراً عمّا يقع في الإسكندرية .

(64) لقد فوجئ ابن جبير بالديوانيين يسيئون الى المسافرين في الإسكندرية فلم يذكر شيئاً عن مرساها . الا أنّ ابن بطوطة قال عنه سنة 1326/726 « لها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا مثله إلا بما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسرداق ببلاد الترك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصّين » انظر رحلته 37/1 . وهذا يعني أنها واحدة من المراسي الخمسة في العالم . وقول ابن بطوطة حجة لأنّه تعرف على هذه المراسي مباشرة .

(65) ورد في الرحلة : السلطان ، قال ابن جبير « فطيف به مرّقبا على السلطان أولاً ثم القاضي ... » وهو يقصد إمّا الوالي أو رئيس الديوانيين وهذا ما رأيته أقرب الى السّياق .

وقد وقف ابن جبير من الديوانيين موقف استنكار وتنديد . ولم يكتف بالتعبير عن شعور المرارة والألم فقط بل حدّد الأسباب ، وهي التالية :

- عدم مراعاة شروط أداء المكس وهي مراعاة محلّه ، وحلول الحول وإدراك النّصاب .

- سوء معاملة المسافرين بالتكشّف على أمتعتهم وإدخال الأيدي « إلى أوساطهم بحثاً عمّا عسى أن يكون فيها » و « فحسباً عمّا تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير » ويلزمهم على الأيمان المغلّظة عمّا يملكون . وأكثر ما هزّ شعور ابن جبير أسلوب استكشاف ما في الغرائر والأعكام ، وقد كشف عن ألمه في قوله « ومن أشنع ما شاهدناه (. . .) خروج شرذمة من مرّة أعوان الزّكاة ، في أيديهم المسال الطويلة ذوات الأنصبه (. . .) فلا يتركون عكماً ولا غرارة إلّا ويتخلّلونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزّاد شيء غُيّب عليه من بضاعة أو مال وهذا أقبح ما يؤثر في الأحاديث الملعنة ، وقد نهى الله عن التجسّس . فكيف عن الكشف لما يُرجى ستر الصّون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يُطلّع عليها إمّا استحقاراً أو استنفاساً دون بخل بواجب يلزمها » .

- عدم احترام الحجيج وتمييزهم عن التجّار . فكيف يُحملون على دفع أداء الزّكاة والحال أنّهم « لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم » ؟ بل كيف لا يقع « تجنّب اعتراض الغرباء المنقطعين ممّن تجب الزّكاة له لا عليه » ؟

إنّ هذه الأسباب كافية في نظر ابن جبير للدعوة إلى جهاد أهل الديوان وهو يعتبر « أن جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الإرهاق وسوء المعاملة » وهي مصادر إهانة للحجاج خاصة « تذكّركم أيّام المكوس » التي كانت إحدى معرّات الفاطميين . ولهذا لم ير أهلاً للقيام بهذا الواجب الدّيني إلّا صلاح الدّين (66) .

(66) كان ابن جبير يعتقد أن صلاح الدّين لم يكن على بينة مما يشين ملكه من سوء تصرف الديوانيين إزاء الحجيج ، وكان يعتقد أنه لو علم به لحاربهم وقضى عليهم . انظر الرحلة ص 14 ، 38 ، 39

أمير مكة : هذا الأمير هو مُكثّر بن عيسى (67) . وظيفته حماية الحرمين ، والسّهر على راحة الأهالي والمجاورين والحجيج . إلّا أنّه كان « ممّن يعمل غير صالح » (68) . ولعلّه لهذا السبب شهّر به ابن جبير ونفّر منه . فقد عُرف بسوء الأدب إزاء الحجيج « فمتى أبطأت (...) الوظيفة (69) المترتبة [له] عاد هذا الأمير الى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم (70) بسبب المكوس » وصادف أن لم تصل في موسم 1184/579 في وقتها ، فما كان منه إلّا أن منع الحجيج من الخروج من جُدّة (71) الى مكة . وقد وصف ابن جبير ذلك بقوله « واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جُدّة . فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثّر الأمير المذكور ، فورد أمره : أن يَضْمَنَ الحاج بعضهم بعضا ، ويدخلوا الى حرم الله . فإن ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدّين [أرجع لهم ضمانهم] (72) وإلّا فهو لا يترك ما له قبل الحاجّ . هذا لفظه » ويعلّق ابن جبير على هذا السلوك الأرعن بقوله « كأنّ حرم الله ميراث بيده ، محلّل له اكترأؤه من الحاج . فسبحان مغير السنن ومبدّلها ! » (73) .

ومما يؤكّد هذا المعتقد أنه في حجته الثانية سنة 1189/585 ، عندما تعرّض في الإسكندرية الى سوء المعاملة من الديوانيين أيضا قال فيه قصيدة تتكون من 54 بيتا يمدحه فيها ويصّحه بمقاومة ظلم الديوانيين . انظر القصيدة في رحلة العبدري - تحقيق محمد الفاسي ، الرباط 1968 ص ص 94 - 96 .

(67) آخر اشراف مكة الأمراء (ت 1201/597) تحدث عنه ابن جبير ووصف ابنته وبعض أعماله في خدمة الكعبة . انظر عنه الرحلة ، الفهرس ، وأيضا الزركلي ، الأعلام 211/8 .

(68) ص 57 .

(69) هذا استعمال خاصّ بابن جبير وهو يعني به المال والطعام اللذين يحملها صلاح الدين الى أمير مكة سنويا . انظر Dozy. Supplément 2/821 .

(70) التثقيف ، هو التسوية . والمقصود هنا تأديب الحاج بجسهم وسجنهم انظر Dozy. Supplément : 1/160 .

(71) كانت جُدّة محلّ تجمع الحجيج المصريين والمغاربة ، وفيها تتم مراقبة دفعهم مكس العبور الذي عوّضه صلاح الدين بالميرة .

(72) لم ترد هذه الجملة في جميع النسخ المطبوعة ، وأضفناها ليستقيم المعنى .

(73) ص 54 ، ويلاحظ ابن جبير أنّ أمير مكة لم يُحلّ سبيل الحجاج فيفصلون عن جُدّة إلّا بعد أن ضمنوا بعضهم بعضا وثبّت اسماؤهم في زمام عند قائد جُدّة . انظر الرحلة ص 57 .

أمير الركب العراقي : كان الخليفة العباسي يكلف سنويا أميرا من أمرائه لمصاحبة ركب الحاج العراقي (74) وتمثيله في موسم الحج . وقد تحدث ابن جبير عن هذا الأمير واهتم خصوصا بمضربه . فوصفه بدقة تدل على إعجابه به . فذكر أنه مضرب « أحدق به سراق كالسور من كتان » وللسراق أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم يُفَضَّى منها إلى الفضاء الذي فيه القباب . والقباب « كلها سواد في بياض ، مرقشة ملونة كأنها أزاهير الرياض » ولم يُخَفِّ رَحَالَتنا دهشته من هذا الأمير ومسكنه فكأنه « ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها ، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله » .

ولئن لم يُفَصِّح ابن جبير عن رأيه في أهبة الأمير وعظمته ، ولم يَقُلْ كلمته بصراحة فإننا نرجح أنه يميل الى الاستهجان . هذا ما يوحي به قوله « وهي من الأبهات الملوكية (. . .) التي لم يُعْهَدْ مثلها عند ملوك المغرب » وقوله الآخر « [وهذا] مما يدل على سعة الأحوال وعظيم الانخراق في المكاسب والأموال » (75) .

الخواتين (76) : لقد وجد هذا الرحالة الأندلسي ما يدعو إلى الإعجاب بسيرة هؤلاء النسوة وما يبرر حديثه عنهن في رحلته . ذلك أنهن تميّزن بالإحسان للمسلمين . فهذه خاتون ، رغم سنّها الصّغيرة التي لم تتجاوز خمسة وعشرين عامًا ، لم تأل جهدا في « أفعال من البرّ كثيرة في طريق الحاج : منها سقي الماء للسبيل ، عيّنت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ، ومثلها

(74) سنّ الرّسول - صلعم - امارة ركب حجيج المسلمين . ثم استمر الخلفاء على هذه السنة . وكان من وظائف أمير الركب نقل كسوة الكعبة التي يعدها الخليفة ، وحماية الحجيج ، وتمثيل الخليفة في مراسم الحج . انظر عنه فصل : Amir Al - Hādj : EI2. 1/456 (J. Jomier)

(75) ص ص 153 - 154 .

(76) مفردة خاتون . لفظة أعجمية تعني السيّدة وهو لقب يطلق على ملوك الترك وقريباتهم . انظر فصل : Khātūn : EI2 - IV/1164 (J.A. Boyle)

للزاد ، واستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعير» (77) وتلك «استجلبت معها إلى المسجد [النبوي بالمدينة المنورة] حملين من المتاع للصدقة» (78) وأخرى «موصوفة بالعبادة والخير . مؤثرة لأفعال البر . فمنها أنها أنفقت في طريقها (. . .) إلى الحجاز ، في صدقات ونفقات في السبيل ، مالا عظيما ، وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كله ، على شبابها ، وانغماسها في نعيم الملك» (79) .

وقد لاحظ ابن جبير أن الخواتين لا ينقطعن عن الإحسان للحاج حتى وإن تأخرن عن الحج فلهن « في كل عام (. . .) نواضح مُسَبَّلة مع الحاج يُرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء وفي الطريق كله ، ويعرفات ، وبالمسجد الحرام ، في كل يوم وليلة ، فلهن في ذلك أجر عظيم . . . » (80) .

ولكن هذا الإعجاب لم يكن صافيا خالصا إذ شابه شعور بالأسى أمام ما ظهر عليه الخوانين من أهبة وإسراف في الزينة مثل تجليل القباب « سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتمائيل بدیعة الصفات » ومثل تجليل أعناق المطايا بالذهب . ومثل كثرة الجواري والغلمان ولم ير في ذلك إلا غرورا بمتاع الدنيا وتعلقا بحطامها ، وعجبا وخيلاء بملك بفان « والملك مُلك الحي القيوم » (81) و « كل مُلك يفنى إلا مُلك الواحد القهار » فيدعو لهن بالهداية (82) .

(77) ص 162 .

(78) ص 177 .

(79) ص 213 .

(80) ص 164 .

(81) ص ص 206 - 207 .

(82) ص ص 212 - 213 .

وأكثر ما أسخط هذا الأندلسي كون البعض من الخواتين أميرات
عسكر ، يَقْدَنَهُ وَيَأْمُرُنَ رجاله أثناء حَجَّهِنَّ . فخاتون بنت مسعود (83) ،
وخاتون أم عزّ الدين صاحب الموصل (84) كانتا ترأسان عساكر الشام
والموصل وأرض الأعاجم ، وتُشرفان على رعاية الحاج . وعندما انفصل
ركبهما - في بغداد - عن الركب العراقي وجد ابن جبير نفسه تحت إمرتهما ففزع
من هذه الوضعية ، وحزّ في نفسه أن يكون ضمن ركبهما ، فلم يتردّد في إعلان
حزنه في قوله « واللّه لا يجعلنا تحت قول القائل : ضاع الرعيل ومن
يقوده » (85) .

ونعتقد أن هذا الرحالة استمد موقفه هذا من ثقافته الدينية . فلا شكّ
أنّه كان يدور بخُلْدِه قول الرّسول - صلعم - « ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة »
(86) ولهذا حزن ، فالحديث ينطبق عليه ما دام تحت سلطة امرأتين .

حكام المغرب : لم يكن في نيّة ابن جبير الحديث عن حكام المغرب ، وما
كان يجوز له ذلك لأنّه قيّد أخبار رحلته تقييدا مباشرا ، بدأ ببدايتها وانتهى
بنهايتها (87) فلا محلّ لأخبارهم . إلّا أنّه تعرّض إلى ذكرهم عرضا ، فجاء
كلامه نافعا مفيدا .

(83) هي بنت ملك الدّروب والأرمن وما يلي بلاد الرّوم ، تحدث عنها ابن جبير . انظر الرحلة ص
161 ، 177 ، 179 ، 206 ، 212 .

(84) هي زوج قطب الدّين بن اتابك أخي نور الدين زنكي . انظر الرحلة ص 162 ، 206 .

(85) ص 206 .

(86) خرّجه أحمد بن حنبل .

(87) بدأ ابن جبير رحلته بقوله بعد البسملة « ابتدئ بتقييدها يوم الجمعة الموفى لشهر شوال سنة 578
25 فيفري 1983 » وأنهى تقييدها بوصوله الى غرناطة في 22 محرم سنة 581/25 أفريل 1185 .

تحدّث عن ملوك الطوائف في الاندلس ، أثناء وصفه مدينة دنيصر (88) فقال « هذه البلدة لسلطين شتى كملوك طوائف الأندلس . كلهم قد تحلّى بحلية تنسب إلى الدّين . فلا تسمع إلّا ألقابا هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السّوقة والملوك ، واشترك فيها الغنيّ والصّعلوك ، ليس فيهم من اتّسم بسمة به تليق ، أو اتّصف بصفة هو بها خليق » وبعد أن استثنى منهم صلاح الدّين لاجتماع الاسم والمسمّى فيه وتوافقهما أضاف « وما سوى ذلك في سواء فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح ، ودعوى نسبة للدّين برّحت به أيّ تبريح ! [البسيط] .

ألقاب مملكة في غير موضعها

كاهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد (89) » (90)

إنّ موقف ابن جبير من ملوك بلده واضح وصريح فهو لا يعترف لهم بالسّلطة ما داموا يحملون ألقاباً هي أبعد ما يكون عن حقيقتهم وصفاتهم وأعمالهم . فبينما كانوا يهولون تلك الالقاب ، وينوّعونها ويتفنّنون في صيغها ، لم يكونوا بقادرين على حماية بلدهم ودفع العدوان عنها وحمايتها من حركة

(88) هي مدينة شامية تقع على طريق القوافل بين الموصل ومنبج . دخلها ابن جبير ومن جملة ما قال عنها « ... مائلة الطبع إلى البادية ولاسورها ، وهي مشحونة بشراً ، ولها الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم ... » . انظر الرحلة ص 216 .

(89) هذا بيت ثانٍ لبنت آخر هو :
مما يزهدني في أرض أندلس أسياء مُعتمد فيها ومعتضد
وفي نسبها خلاف . نسبها ابن خلكان لذي الوزارتين أبي بكر محمّد بن عمار الأندلسي (ت 1085/477) قالها في هجاء المعتمد بن عباد وبسببها قُتل . انظر الخبر في ترجمة ابن عمار ، في وفيات الأعيان . طبعة باريس 1838 ، 425/4 - 429 . ونسبها ابن خلدون لابن شرف . انظر المقدمة الباب 3 الفصل 32 في اللقب بأمر المؤمنين وانظر ايضا البيت في عبد العزيز الميحي ، التفت من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1343 ، ص ص 24 - 25 .

(90) ص 216 .

الاسترداد الصليبية . على أن ابن جبير قد كان يشعر بنخوة الانتساب الى الأندلس والاعتزاز بها . ولم يرَ سواها معياراً للحضارة والتّمدّن (91) .

كما تحدّث عن دولة الموحّدين (92) عرضاً أيضاً . فعندما أساء أمير مكّة الأدب إزاء الحاجّ في جدّة ، تألم ابن جبير ألماً شديداً ، وسرعان ما تذكر سوء معاملة الديوانيين في الإسكندرية واخميم وقوص ، فقرّر أنّ « هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرّقوا على مذاهب شتّى . وهم يعتقدون في الحاجّ ما لا يُعتقد في أهل الدّمة قد صيروه من أعظم غلاتهم التي يستغلّونها ، ينهبونم انتهابا ، ويسبّون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً ، فالحاجّ معهم لا يزال في غرامة ومؤونة الى أن يُيسّر الله رجوعه الى وطنه . ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدّين لكانوا من الظلم في أمر لا يُنادى وليده ولا يلين شديده » (93) .

هذه الفقرة تُخفي في طيّها سؤالاً هاماً وهو : إذا كان الظلم عامّاً في بلاد المشرق ، ولا يستطيع صلاح الدّين وحده مقاومته والتّصدّي له ، فكيف يمكن الخروج من هذا المأزق ؟

لم يحجّر رحالتنا جواباً عن هذا السؤال . فقد كان يعتقد أنّ الموحّدين - هم وحدهم - القادرون على تحقيق هذه الغاية النبيلة وهي « تطهير » البلاد من « البدع المصحفة عن المسلمين » . وما ذلك بعزيز عليهم

(91) كان ابن جبير ينظر الى المدن التي عبرها في المشرق أو صقلية من خلال حضارة المدن الأندلسية . انظر الرحلة مثلاً ص 97 ، 214 ، 216 ، 217 ، 218 ، 228 ، 232 ، 296 ، 297 ، (لا يتردّد هنا في القول بأن صقلية « ابنة الأندلس ») .

(92) يمكن اعتبار نشأتها بخروج عبد المؤمن بن علي بجيوشه من تيمنال سنة 1140/535 للقضاء على المرابطين في مراكش . وقد عمل خلفاؤها على توحيد بلاد المغرب ، ودفع خطر الإسبان في الأندلس . انتهت دولتهم سنة 1269/668 . انظر عنها عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس ، القاهرة 1964 .

(93) ص 54 .

ما داموا « أنصار الدين وحزب الله أولي الحق والصدق، والذابين عن حرم الله عز وجل والغائرين على محارمه ، والجادّين في إعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملّته » (94) .

وقد جرّه هذا المعتقد الى البحث عن حجج موضوعية تُقنع القارىء وتدعم موقفه فقدّم منها ثلاثا وهي :

أ - « لا إسلام إلّا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة لا بُنيات (95) لها » وهذا يدلّ على فخر ابن جبير - على غرار سائر المغاربة - بوحدة العقيدة والمذهب في المغرب . فهم مسلمون على مذهب مالك ، وليس فيهم « فرق ضالة وشيع » كما عند المشاركة . وقد سعى رحالتنا الى تتبّع أخبار الفرق هناك (96) .

ب - « لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلّا عند الموحّدين » وفي هذا الكلام إشارة الى أهمّ مبدأ من مبادئ الموحّدين وهو التوحيد الذي يعني عندهم : التوحيد في العقيدة والتوحيد في السياسة .

ج - الموحّدون عادلون لأنهم لا « يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم » ولا « يستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب » ولا « يركبون طرائق من الظلم لم يُسمع بمثّلها » كما كان يفعل المشاركة .

ثمّ عمد ابن جبير الى البحث عن صدى حكم الموحّدين وحركتهم السياسية في مصر حتّى يُدعّم موقفه . فوجد أن المصريين كانوا مطلعين على أخبار هذه الدولة ، بل إنهم كانوا متعلّقين بها ، متوقّعين « ملكتها » لهم بناءً على « آثار جِدْثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن فعاينوها صحيحة » . ومن تلك الآثار الإنذارية أورد اثنين :

(94) تحدّث ابن جبير عن الموحّدين في صفتين انظر ص 55 - 57 .

(95) بُنيات الطريق هي الطرق الصّغار تشعّب من الجادة . والمقصود هنا الترهات والتشعبات المذهبية .

(96) انظر مثلاً ص 56 ، 215 ، 224 ، 225 ، 229 .

الأول اعتقادهم أن القنطرة التي بناها صلاح الدين لتسهيل عبور العسكر من القاهرة الى الإسكندرية أثناء فيض النيل إنما هي « إيدان باستيلاء الموحدين على [مصر] وعلى الجهات الشرقية » (97) .

الثاني اعتقادهم في تمثالين أنه إذا سقط الناظر منها الى الشرق تغلب على مصر أهل تلك الجهة ، وإذا سقط الناظر منها الى الغرب تغلب على مصر أهل تلك الجهة ، وحدث أن سقط الناظر منها الى الشرق « فتلا وقوعه استيلاء الغز (98) على الدولة العبيدية وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن (99) متوقعون سقوط التمثال الغربي » وتملك الموحدين لهم .

وقد بلغ التوقع عند بعض فقهاءهم الى حدّ اليقين وهو ما استطاع ابن جبير التعرف عليه في الإسكندرية والقاهرة . قال « ونمي إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حبر خطبا أعدّها للقيام بها بين يدي سيّدنا أمير المؤمنين (100) . . . » .

هذا هو رأي ابن جبير في الموحدين وموقفه من سياستهم . فهو يعتقد أنهم جديرون - وحدهم ودون سواهم من الحكام - بحكم البلاد ، وتدبير

(97) هذا المعتقد ذكره ابن جبير عرضا اثناء حديثه عن القناطر التي بناها صلاح الدين . انظر الرحلة ص 28 .

(98) اسم الجنس من الأتراك يتكون من تجمع تسع قبائل ، ثاروا على امبراطور الأتراك الغربيين وكوّنوا امبراطورية لهم حوالي القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد . ومنهم انفصلت جماعة ، فتميّزت ببعض الصفات ، ودخل أفرادها البلاد العربية . انظر فصل : (CI) - 11/1132 - Ghuzz : E12. (Cahen) ونلاحظ أن المقصود هنا بالغزّ صلاح الدين الأيوبي .

(99) دخل ابن جبير القاهرة يوم 11 من ذي الحجة سنة 7/578 أبريل 1183 .

(100) نلاحظ أن ابي جبير لقب سيده الموحدي بأمير المؤمنين ، وهو لقب خاصّ بخليفة المسلمين . عن هذا اللقب وتداوله بين السلاطين ، انظر ابن خلدون ، المقدمة ، الباب 3 ، الفصل 32 في اللقب بأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء . كما نلاحظ أن أمير المؤمنين الموحدي الذي يقصده ابن جبير هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (حكم بين 1163/558 - 1184/580) . وكان هذا السلطان من اعظم خلفاء الدولة الموحديّة ، محبّا للجهاد . انظر عنه عنان ، عصر المرابطين والموحدين 2/ص 10 - 130 .

شؤون العباد ، وتوحيد المسلمين وخاصة العرب منهم ، وتطهير الدين من البدع، وإحيائه .

والحقيقة أن ابن جبير لم يجانب الصواب في رأيه . فقد كان المهدي ابن تومرت (101) مؤسس الدولة الموحدية وواضع مبادئها ، غاضبا عما رآه في الإسكندرية من بدع وضلال . فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر حتى نفى عنها ، ولم يتخل عن نية تطهير تلك البلاد عند نشأة دولته في المغرب . فقد روي عنه أنه قال لجلسائه تحت شجرة الخروب المواجهة لمسجده بتمنل ذات مرة « لئبصرون منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها » (102) وهو يشير بذلك الى امتداد حكم الموحدين الى بلاد المشرق وإخضاع حكامها لهم . ولم تزل هذه الفكرة تراود سلاطين الموحدين . فهذا المراكشي (103) أحد المؤرخين لها يشهد بذلك عندما ينقل خبر مشروع المنصور (104) لغزو مصر في قوله « بلغني عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة الى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع

(101) هو مؤسس الحركة الموحدية وواضع مبادئها ، من أصل بربري ، ارتحل الى الأندلس ثم الى المشرق ثم عاد الى بلاده سنة 1117/511 . فانبأ بأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ويدعو الناس الى التوحيد ويعلمهم ويحرضهم على مقاومة البدع بالسيف حتى تكونت حوله جماعة كبيرة ثارت على المرابطين بقيادة عبد المؤمن بن علي . مات سنة 1132/527 ودفن بتمنل . انظر عنه : عنان ، عصر المرابطين والموحدين 1/ص 156 - 176 وفصل : 4 - 111/983 EI2 Ibn Tumart. (J.F.P. Hopkins)

(102) انظر المراكشي : العجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس الى آخر عصر الموحدين) تحقيق محمد سعيد العربي ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط . 1 . 1949/1369 . ص 291 .

(103) هو عبد الواحد التميمي (1181/581 - 1249/647) مؤرخ ارتحل الى المشرق . من تصانيفه العجب في تلخيص أخبار المغرب . انظر عنه الزركلي : الاعلام 6/210 .

(104) هو يعقوب المنصور ثاني الخلفاء الموحدين (حكم بين 1184/580 - 1199/595) أعظم الخلفاء الموحدين في ظلّه بلغت الدولة أوج قوتها . كان يحب الجهاد . انظر عنه : عنان ، عصر المرابطين والموحدين 2/ص 130 - 238 وفصل : 171 A. 1/169 EI2 Abu Yusuf Ya'qūb. Huici Miranda

ويقول « نحن إن شاء الله - مطهروها » ولم يزل هذا عزمه الى أن مات » (105) .

وبقطع النظر عن صدق هذه النية وإمكانية تنفيذها (106) فإن ابن جبير كان محققاً في حبّ الموحّدين لما بذلوه من جهد في مقاومة الإسبان والمحافظة على الأندلس ، ولما ظهروا عليه من حماس ديني لا بد منه لإذكاء جذوة الجهاد ، ولما أبدوه من رغبة في توحيد المغرب والقضاء على النعرات والعصبيات والطامعين في الحكم (107) ، ولما كانوا يتوقون إليه من جمع شمل المسلمين مغرباً ومشرقاً (108) ولما جسّموه من قوة عسكرية في البحر الأبيض المتوسط شهد لهم بها صلاح الدين وابن خلدون أمّا الأول فقد استعان - في محاربة الصليبيين - بالمنصور في رسالة بعثها له سنة 1189/585 « يستجيشه على الروم الفرنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية » ويطلب منه تحريك أسطوله نحو صقلية وإيطاليا ليسدّ عليهم الطريق (109) وأمّا الثاني فقد قال عنهم « لما استفحلت دولة الموحّدين في المائة السادسة وملكوا العدوّ تين أقالما خطة (...) الأسطول على أتمّ ما عُرف وأعظم ما عهد » وقال عن يوسف بن عبد المؤمن (110) « انتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل و بعدُ فيما عهدناه » واعتبر ابن خلدون أنّ شوكة

(105) المراكشي : المعجب ص 284 .

(106) يذهب عبد الله عنان الى ان « فكرة غزو مصر - إن كانت - لم تكن لدى الموحّدين سوى أمنية خيالية بعيدة المثال » انظر عصر المرابطين والموحدين 2/ ص ص 243 - 244 .

(107) مثال ذلك بنو غانية الذين أسسوا دولتهم في بجاية سنة 1182/578 وهم موالون للعبايين . انظر عنهم : المراكشي ، المعجب ص 267 وما بعدها .

(108) كان ابن توموت يقول لأصحابه « أنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم » انظر المراكشي المعجب ص 188 .

(109) انظر هذه الرسالة في صبح الأعشى 6/ ص ص 526 - 530 .

(110) تقدم التعريف به . انظر التعليق 100 .

المسلمين في البحر الأبيض المتوسط قد خضدها النصارى بضعف الدولة الموحّدية وذهاب ريجها (111) .

حكّام النصارى : عندما أنهى ابن جبير مناسك الحجّ وأدّى الفريضة قرّر عدم الرجوع الى بلده من البلاد المصرية لما لحقه من سوء معاملة الديوانيين ، ولما أصابه من إرهاب العيذابيين (112) وآثر مصاحبة الركب العراقي ثم ركوب البحر من عكّة . فكانت فرصة ثمينة مكّنته من دخول بلاد الصليبيين وصقلية فجاءت معلوماته عنها ذات قيمة وثيقة ليس لها ما يعوّضها لأنها شهادة عيان مباشر ولأنّها تكشف عن حدّة الصراع بين الصليبيين والمسلمين ، وعن الحيل التي اتبعها التّرمانديون في استيعاب من تبقى من المسلمين في الجزيرة . والذي يهّمنا الآن هو التعرف على موقفه من حكام النصارى .

كان يحكم المدن الصليبية في الشام عدّة ملوك حدثنا ابن جبير عن اثنين منهم بإيجاز . فذكر ملكة حصن تبين (113) دون أن يعرف بها (114) واكتفى بنعتها بالخنزيرة والدّعاء عليها بالتدمير (115) . وتوسّع الحديث شيئا ما عن ملك عكّة فقال « هذا الخنزير صاحب عكّة المسمّى عندهم بالملك

(111) انظر المقدمة ، الباب 3 ، الفصل 34 ، في مراتب الملك والسلطان وألقابها ، قيادة الأساطيل ص 453 - 454 .

(112) كان العيذابيون يقومون بعملية نقل الحجيج من عيذاب الى ابحر عبورا بالبحر الأحمر على نوع من المراكب اللينة الخطرة المهدّدة بالموت غرقا في كل لحظة . انظر الرحلة ص ص 47 - 52 .

(113) هذا أحد الحصون الصليبية الفاصلة بين الممالك الصليبية وبلاد الشام الإسلامية وصفه ابن جبير بقوله « حصن كبير من حصون الإفرنج ... وهو موضع تمكيس القوافل » مكس العبور . انظر الرحلة ص 274 .

(114) هي إجنيس كورتناي Agnès Courtenay ولدت على الأرجح سنة 1133 م ، تزوّجت إملريك ملك يافا وعسقلان سنة 1157 م وانجبت منه بلدوين (الرابع) وسبيلا . وقد عُرفت بسوء الخلق وحبّ الرجال والمال ويذكر وليام الصوري أنها كونتسة يافا وعسقلان ولم تكن مطلقا ملكة ولم تعرف قط بهذا اللقب . انظر عنها : س . رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية (بالإنكليزية) تعريب سيد الباز العربي ، دار الثقافة بيروت ط 1981/2 ، الفهرس .

(115) ص 274 .

محجوب لا يظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام (116) فعجل له سوء الانتقام ، قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله القومس (117) وهو صاحب المجبى » (118) وذكر أنه ابن ملكة تبين (119) . وما يشد الانتباه في قول رحالتنا ملاحظتان : الأولى أنه لم يسم أحدًا من حكام الصليبيين باسمه . وهذا على عكس عاداته . فالمعروف عنه أنه يستقصي البحث ، ويدقق الأخبار ويسمي الأشياء بأسمائها ، والثانية أنه نعت الملكة وابنها الملك باسم الحيوان المحرم أكل لحمه في الإسلام (120) . وهذا ينم على الشعور الذي يحمله ضد الصليبيين فهو حاقده عليهم ليس لأنهم احتلوا أرض الإسلام فحسب بل وكذلك لأنهم دنسوا المقدسات في بيت المقدس (121) . وذهب به حقه إلى الدعاء على كل مدينة كانت تحت حكمهم بالدمار (122) .

إلا أنه رغم هذا الهياج العاطفي ، لم يغفل ملاحظة سلوكهم إزاء المسافرين المسلمين في ممالكهم . فانتبه إلى أنهم كانوا يحسنون معاملتهم

(116) هذا الملك هو بلدوين الرابع وهو صاحب عكة لأنها كانت تتبع القدس كرسي المملكة تولى الحكم ولم يتجاوز الثالثة عشرة سنة 1174 م ومات بسبب مرضه الطويل سنة 1185 م انظر عن أخباره ، رنسيان : تاريخ ، فهرس الجزء الثاني .

(117) ترسم أيضا القمس أو القمص ، جمعها قوامس : كلمة لاتينية Comes وتعني في الأصل نديم الملك . ثم أطلقت على من كان من وجوه القوم ، ثم تطورت معنى ومعنى في اللغات الأوروبية فهي في الإسبانية Conde وفي الإنكليزية Count وفي إيطاليا Conte وفي الفرنسية Comte وكلها تعني حاكم منطقة يتمتع باستقلال ذاتي أوتام ، أو هي بمعنى الرجل الشريف . وكانت هذه اللفظة مألوقة عند الأندلسيين . انظر على الحجي : جغرافية الأندلس ص 99 . تعليق 1 .

(118) ص 282 .

(119) ص 274 .

(120) انظر سورة البقرة (2) الآية 173 ، المائدة (5) الآية 3 ، الانعام (6) الآية 145 ، النحل (16) الآية 115 .

(121) الغريب أن ابن جبير - رغم دخوله الممالك الصليبية - لم يزر هذه المدينة المقدسة .

(122) انظر مثلا دعاءه على مكة ، ص 276 ، وصور ، ص 277 .

ويلينون معهم ويلطفون ويلطفون . فمن إحسانهم لهم أنهم أعدّوا خانا خاصا ينزل فيه التجّار ، وأنهم يمكّسونهم في الخان تجنّبا للإرهاق واختلاط السّلع ، وأنهم أطلقوا سبيل سائر المسافرين للنزول حيث شاؤوا « كل ذلك برفق وتؤدّة دون تعنيف ولا حمل » (123) ولا شكّ في أنّ ابن جبير كان يدوّن ملاحظاته هذه تحت وطأة ما انطبع في ذاكرته من سوء تصرّف الدّيوانيين المصريين إزاء المسافرين المسلمين . فلقد كان من المفروض أن تحسّن معاملتهم هناك وتُساء هنا .

وعندما دخل ابن جبير صقلية أقبل يتعرّف عليها ، ويحدّثنا عن ملكها حديثا وافيا .

كان ملكها يسمّى « غليام » (124) ، وسنّه نحو الثلاثين سنة ، وسلوكه « عجيبا » وسيرته حسنة . وكان على شبابه مدبّرا حكيما ، وداهية عظيما . وهو ما يدلّ عليه نظام حكمته . فقد ركّز سياسته على دعامين لا بدّ منها لتستقيم أحوال دولته وهما :

أ - استعمال المسلمين : واصل هذا الملك سيرة أجداده (125) في الاستفادة من خبرة المسلمين المتبقين في الجزيرة . فاطمأن إليهم وتوكّل عليهم في عدّة وظائف منها (126) :

(123) ص ص 275 - 276 .

(124) هو غليام الثاني ، ويُلقب بالحسن ، حكم بين 1166 م - 1189 م . قام بعدّة حملات على مصر سنة 1174 ، 1175 ، 1177 ، 1185 ، قصد الاستحواذ على دلتا النيل . انظر عنه

Guillaume II : Grand Larousse V/712

(125) نذكر مثلا روجار الثاني مؤسس الدولة النورمانية في صقلية (حكم بين 1111 م - 1154 م) عمل على تكوين أسطول عظيم هاجم به السواحل الإفريقية وجمع حوله علماء كثيرين نذكر منهم الشريف الإدريسي (ت 1185/560 ؟) صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . عن روجار . انظر أحمد عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية (بالإنكليزية سنة 1975) نقله الى العربية أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1980/1389 ص ص 64 - 68 .

(126) للتعرف على أخبار غليام . انظر الرحلة ص ص 297 - 299 .

- وزراءه وحجابه ، فتیان (127)
 - طرازه ، فتی
 - ناظر مطبخته رجل من المسلمين
 - عبيده وقائدهم من المسلمين
 - جواريه وحظاياه في القصر مسلمات كلهن
- ولم يكتف غليام باستعمال المسلمين والتعويل عليهم في المهمّات فحسب بل صار يتشبّه بملوكهم . فقد وعى أنّ الحكام المسلمين قد أدركوا شأواً في سياسة الدّول وتدبير أمور الرعية ، وإقامة العدل . فسار سيرتهم ونهج نهجهم في المجالات التالية :
- ترتيب القوانين .
 - وضع أساليب الحكم .
 - تقسيم مراتب أعوانه .
 - تفخيم أهبة مُلكه بجمع الأطباء والمنجّمين حوله و « الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أنّ طبيباً أو منجّماً اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته يُسليه عن وطنه » .
 - الانغماس في نعيم الملك ببناء القصور والتأنّق في البساتين (128) .
 - اتخاذه العلامة وهي « الحمد لله حقّ حمده »
 - وجملة القول إنّ « كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهمّ من أشغاله » . هذا ما يدلّ - فعلاً - على حنكته وتبصّره بالسياسة . فلم يَجُنْ

(127) يطلق ابن جبير هذه الصفة على المسلمين السّنّين الذين يفعلون خيراً فهو يقول في فتیان صقلية « ولهم في فعل الجميل أخبار ماثورة ، وفي افتكاك الأساري صنائع عند الله مشكورة » (الرحلة ص 300) ويقول عنهم في المشرق « سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها . . . » (الرحلة ص 252 - ولزيادة الاطلاع على الفتوة . انظر فصل : Cl. : 7 - 11/983 . EI2 . Futuwwa . Cahen)

(128) ذكر ابن جبير أن له قصراً أبيض بمسينة (الرحلة ص 298) وقصوراً ببلارمة (الرحلة ص 303) .

من المسلمين المتبقين في الجزيرة فوائد مباشرة في تدبير أمور البلاد والعباد فحسب بل أبعد خطر ثورتهم عليه أيضا .
 ب - تقوية الدولة : كانت صقلية دولة فتية ، وتواجه منافسة قوية من الجمهوريات الناشئة مثل البندقية وبيزة وجنوة ، وتتصدى لخطر مهدد من الموحدون المغاربة أخطر قوة ضاربة في البحر الأبيض المتوسط وقد أدرك حكام الجزيرة هذه الحقائق وقدروها حق قدرها فسبقوا الأحداث واستعدوا للطوارئ فجسموا هذه الإرادة في مجالين :

أولا مجال الاقتصاد : كان الاقتصاد - في ذلك العصر - مرتكزا على التجارة وتبادل السلع . وكان على الحكام الصقليين أن ينافسوا الجمهوريات الإيطالية وغيرها من الممالك الأوربية في تكوين أسطول تجاري كثير القطع والفوز بإبرام اتفاقات مع المسلمين يضمنون بها التزود من سلع الصين والهند وإفريقيا . وقد شاهد ابن جبير في صقلية ما يدل على أن حكام صقلية - وخصوصا غليام - قد حققوا الفوز على القوى التجارية المنافسة بجعلهم مدن الجزيرة مدن صدور وورود وعبور بين البلاد الإسلامية والبلاد الأوربية . وكفانا دليلا على ذلك وصفه لمدينتين هما :

مسيّنة (129) : قال عنها « هذه المدينة موسم تجار الكفار ، ومقصد جوارى البحر من جميع الأقطار (. . .) ومُرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأن المراكب الكبار (130) تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب منها الى البر خشبة يتصرف عليها . فالحمال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزوارق في

(129) تقع هذه المدينة على مضيق مسينة بين صقلية وإيطاليا ، أسسها القراصنة منذ القديم ، ومرت بتطورات مختلفة حتى أخذها العرب سنة 842/228 ، ثم استردها البيزنطيون سنة 1038/430 . ويعتبر مينائها من اعظم موانئ أوروبا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي . انظر عنها فصل : Messine : Grand Larousse VII/290 .

(130) حسب ابن جبير ، السفينة الكبيرة هي التي تحمل « أزيد من ألفي إنسان » (الرحلة ص 283) . ويبدو - حسب الدراسات الحديثة - أن هذا الرقم مبالغ فيه لأن القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، لم يعرف بعد هذا النوع من السفن الضخمة .

وسقها ولا في تفرغها» ولم يجد أفضل من تشبيه هذه السفن الجواري بالجياد في عظمتها وانتظامها واستقرارها فقال « تراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها وذلك لإفراط عمق البحر (...) . وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال » (131) . وقد كان مرسى مسينة يستقبل السفن من بلاد الشام ، ومصر ، وتركيا ، ومنه تصدر إليها . ولم يكن يوجد مرسى ينافسه (132) .

أطرابنش (133) : تحدّث ابن جبير عن مرساها بقوله « مرساها من أحسن المراسي وأوقفها للمراكب . ولذلك يقصد الروم كثيرا إليها ولا سيّما المقلعون الى برّ العدو » . وبرّ العدو يعني تونس - فإن بين المدينتين « مسيرة يوم وليلة . فالمسافر منها إليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا إلّا ريثما تهبّ الرّيح الموافقة فمجرهاها في ذلك مجرى المجاز القريب » (134) - وسائر مدن الجزائر والمغرب والأندلس وأروبا الغربية .

ثانيا مجال العسكر : لقد استغلّ الصّقليّون موقع جزيرتهم في بناء أسطول تجاري قوي وتجهيزات ملاحية هامة ، ولكنهم لم يكتفوا بالعناية بهذا المجال لأنهم أدركوا أنّ التجارة لا بدّ لها من الحماية فضلا عن الوقاية . فالبحر الأبيض المتوسط كان يعجّ بالقراصين ، والأعداء متربصون بهم . وزيادة عن ذلك كانوا يتوقعون تدخّل الموحدّين لاسترداد الجزيرة وإخضاعها من جديد لسلطة الإسلام . كل هذه العوامل أجبرتهم على الاهتمام بتكوين أسطول

(131) ص 296 .

(132) كانت السفن الأوروبية تتجمّع في مرسى مسينة في شكل قوافل للإبحار نحو المشرق وكانت لها سفرات معينة ومحدّدة بحسب حركة الرّياح . وقد حدّثنا ابن جبير عن هذه الرّياح في هبوبها من الشرق أي أثناء سفر السفن من عكة وصور وغيرها الى مسينة انظر الرحلة ص 284 .

(133) تقع على لسان من اليابسة داخل في البحر ، فجاء مرساها طبيعيا ممّا جعلها مدينة تجارية وجسرا بين أوربا وأفريقيا ، انظر عنها فصل : Trapani : Grand Larousse X/459

(134) ص 308 .

عسكري عتيد قادر على صدّ أيّ عدوان ، ولم لا يكون قادرا على الهجوم وهو أحسن مذهب عسكري في حماية النفس وإرهاب العدو؟

لقد اهتمّ ابن جبير بهذا الجانب لأنّه كان واعيا بالصّراع بين الصّليب والإسلام ، فحدّثنا عن عناية غليام - مثل أجداده - بصناعة السفن فله في مسيّنة « دار صنعة البحر تحتوي من الأساطيل على ما لا يُحصى عدد مراكبه ، وله بالمدينة (135) مثل ذلك » (136) كما ذكر أنّه أعدّ أسطولا لبعض هجوماته (137) عدد أجفانه ، فيها يقال ثلاثمائة بين طرائد (138) ومراكب ، ويُقال أكثر من ذلك ، ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطّعام » (139) هذان الرّقمان يدلّان على أنّ غليام تجاوز مرحلة الدّفاع الى مرحلة الهجوم ، وأنّ صقلية هذه الجزيرة الصغيرة صارت قوة بحرية ، لها دورها في البحر الأبيض المتوسط .

إنّ هذه المعلومات الكثيرة عن غليام وحكمه تدلّ على اهتمام ابن جبير به لأسباب عدّة منها حبّ الاطلاع على نظام حكمه ونوع سياسته ، ومنها واجب الكشف عن حال المسلمين المتبقّين في الجزيرة في ظلّ دولته ، ومنها الإعجاب . فقد وجد فيه ملكا حازما يحسن التدبير ، ويتدفّق حيوية وذكاء ، محسناً لرعيته خيرا (140) ، حليما (141) عدلا (142) . ولولا أنّه « مشرك »

(135) المدينة هو اسم بلارمة ، بلارمو اليوم ، عاصمة صقلية .

(136) ص 300 .

(137) لم يقع الإعلان عن هذا الهجوم ووجهته فاختلّت فيه الظنون « فمنهم من يزعم أن مقصده الإسكندرية (...) ومنهم من يقول إن مقصده ميورقة (...) » ومنهم من يزعم أن مقصده إفريقية (...) ومنهم من يرى أن احتفاله إنّما هو لقصد القسطنطينية العظمى (...) . ابن جبير الرحلة ص 310 . وفي هذه الفقرة ما يؤكّد الصّبغة العسكرية لحكام صقلية .

(138) مفردة طريدة وهي سفينة مفتوحة المؤخرة يستطيع الفارس ركوبها على الفروس . فهي اذن سفينة حربية . انظر ابن بطوطة : الرحلة 651/2 .

(139) ص 310 .

(140) ص ص 295 - 296 .

(141) ص 299 .

(142) ص 304 .

(143) لأثنى عليه ومدحه ، وحشره في زمرة الملوك العظماء عصرئذ ولأنه مشرك رأى فيه الخطر على الإسلام ، وعلى من تبقى من المسلمين في الجزيرة ، باستيعابهم شيئاً فشيئاً مع الانتفاع بهم (144)، وعلى المسلمين في المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط (145) فكان يعبر عن وعيه هذا بمثل هذه الجمل « واللّه يُعيد المسلمين من الفتنة به » و « كفى اللّه المسلمين عاديته وبسطته » (146) و « أباده اللّه » (147) و « اللّه يعين عليه ولا يعينه » (148) .

وصفوة القول إنّ ابن جبير لم ينظر الى السياسة على أنّها نظريات وقوانين ومبادئ من وضع الكتاب والمفكرين والمنظرين بل هي في رأيه عمل وممارسة وسلوك . ولهذا أقبل على أعمال الحكام بمختلف أصنافهم يصفها كما هي ، وعلى أقوالهم ينقلها بدون تحريف . وهو لعمرى أسلوب إخباري واقعي لا يبعد بالقارىء عن العيان المباشر والتصور الصحيح .

والعمل السياسي - عند رحالتنا - يقوم على ثوابت منها العدل والقوة في الحق ، ومباشرة الرعية . ولهذا كان منشغلاً بإبرازها أثناء وصفه لأعمال الحكّام الذين تحدّث عنهم . وكان يمدح من تتوفر فيه ويثني عليه مثلما أشاد بصلاح الدين ونعت غليام . كما كان يذمّ من لم تتوفر في سياسته هذه المقومات مثلما فعل مع الخليفة العباسي .

(143) ص 299 .

(144) لقد أشار ابن جبير الى الوسائل التي استعملها حكام صقلية لاستيعاب المسلمين المتبقين مثل تكليفهم بالأعمال ، ومنع الجمعة ، وإغراء الزعماء الروحيين المسلمين ، وإثارة الفتنة بين الآباء والأبناء وحصر المسلمين في أماكن خاصة - للاطلاع على وضعية المسلمين في صقلية انظر الرحلة ص ص 297 - 316 . ونلاحظ أنّ م . أماري قد نقل قول ابن جبير عن صقلية في كتابه : المكتبة العربية الصقلية ، ليسك 1857 ص ص 76 - 104 .

(145) تحدّث التجاني عن هجومات روجار على السواحل التونسية مثل المهديّة وقابس وصفاقس وطرابلس ، انظر رحلته .

(146) ص 299 .

(147) ص 305 .

(148) ص 310 .

وقد تميّز ابن جبير- في مواقفه السياسية- بالموضوعية والوضوح فلم يتعصّب إلّا لما يراه الحقّ . فلئن أعرض عن الدّعاء للخليفة العبّاسي- وهو خليفة المسلمين شرعيا ورسميا- فلأنّه غير جدير بالثناء . فما قولك بخليفة « معتقل » لا يباشر الرّعية ، حتّى إن خرج فإنّه يعمد إلى التّعمية ؟ وإن أظهر حبّا كبيرا للموحّدين واعتبر خليفتهم « أمير المؤمنين » ، فما ذلك لعصبية أو هوى ، وإنّما لعقيدة اعتقدها ، ولحقّ آمن به ، ولصواب رآه ، فقد جسّموا : العدل والقوة في الحق ، ومباشرة الرّعية .

وحتّى في نظره الى النصارى لم يكن ابن جبير متعصّبا أكثر من اللازم فقد أثنى عليهم حين وجب الثناء مثل لينهم في التّمكيس ، أو مثل اعجابه بغليام لحسن سيرته . ولم يترك التعصّب الديني يطغى عليه الى درجة إغفال قول الحقيقة .

وهكذا ، نكون قد حاولنا الكشف عن جانب آخر من جوانب طرافة رحلة ابن جبير ، وعبقريّة صاحبها .

أحمد الشتيوي